الشاعران المتشابهان

الشابي (التونسي) والنجاني (السوداني)

للأستاذ أبي القاسم محمد بدري

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

— تصوير الأمنيات الوطنية :

الشاعران اشتركا في البواعث التي تستفز الإنسان إلى النطق بشعر متفق في المعنى والغرض لما بينهما من التشابه في كثير من نواحي الحياة كما قدمنا ، فكلاهما عاش حياه مليئة بالأهوال ، زاخرة بالكفاح والنضال . وبرم كل منهما بما يجرى بين أهله وقومه ، مستهجناً حياة شعب يعاني متاعب الاستعباد وآلام الاستبداد . ولقد بذل كل منهما جهده في تصوير أحوال شعبيهما حفزاً للشعور ، واستفزازاً للنفوس المكلومة لتصحو من غفوتها ، وتهب من رقدتها ، وتنهض وتركض حتى تلحق بركب الأمم المسرع العجلان الذي لا يعين العاجز ولا ينتظر المتخلف الكسلان . إنهما أجادا وأفادا ، كأحسن ما يطلب ذلك من شاعرين عظيمين أديا رسالتيهما في البلاغ والبيان أداء كاملا واضحاً في مبناه ، قوياً في معناه ، مؤثراً بألفاظه وموسيقاه ، قال الشابي مخاطباً شعبه .

ليت لي قوة العواطف ياشعبي فألقي إليك ثورة نفسي
ليت لي قوة الأعاصير لكن أنت حي يقضي الحياة برمس
أنت روح غبية تكره النور وتقضي الدهور في ليل حدس
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حواليك دون حس وحس

إلى أن قال : —

في صباح الحياة ضمخت أكوا بي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها إليك فأهرقت رحيق ودست يا شعب كأسي
فتألمت ثم أسكت آلا مي وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضدت من أزاهير قلبي باقة لم يمسها أي إنس
ثم قدمتها إليك فزقت ورودي ودستها أي دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً وبشوك الصخور توجت رأسي

ثم قال لما يئس من الإصلاح وبرم بالحياة وحينما ذهبت صحته أدارج الرياح ولم يسمع قومه الأنين والنواح : —

هأنا ذاهب إلى الغاب يا شعـ ـبي لأقضي الحياة وحدي يأسي
هأنا ذاهب إلى الغاب عـلّي في صميم الغابات أدفن نفسي
ثم أنساك ما استطعت فما أذ كرك بأهل لحرقتي ولكأسي

ولكن هيهات أن ينساه وهو قد ترعرع فوق أرضه ونشأ تحت سماه . إنه يحثه للنهوض ويدفعه للعمل السريع بعد سكب روح الأمل البديع فيه ، وذلك يتضح في خطابه الطير الذي يدري معنى الحياة ، ويعرف أن طيب عيشها لا يتاح لمن سلبت حريته ، ومات حسه وبلد شعوره ، وانطفأت جذوة آماله ، وغاض معين أحلامه .

سوف أتلو على الطيور أناشـ ـيدي وأفضي لها بأحزان نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري أن مجد النفوس يقظة حس

ويتبين لك عند إنعام النظر أنه لم ييأس من الإصلاح بل كان يستبعد زمنه ؛ لأن شعبه لم يبلغ سن النضج ولم يقف على سوقه ينافح ويكافح ليرد حريته المسلوبة فيحظى بكمال استقلاله ، ويرغم غيره من الأمم على احترامه وإجلاله . وفي القول التالي يؤنب بني قومه لما استخفوا بقوله ، وأشاحوا معرضين عن سماع صوته .

أيها الشعب أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل ينسى
أنت في الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس
والشقي الشقي من كان مثلي في حماسيتي ورقة نفسي
هكذا قال شاعر ناول الشعـ ـب رحيق الحياة في خير كأس
فأشاحوا عنها ومروا غضابا واستخفوا به وقالوا ببأس
« قد أضاع الحياة في ملعب الجن فيا بؤسه أصيب بمس »
« طالما حدث الشياطين في الوا دي وغنى مع الرياح بجرس »

ويشبه النجاني الشابي في رقة الإحساس ودقة المشاعر . فهو نفس مرهفة مضطرمة ، وقلب خفاق بلواعج الحب لوطنه ، والإخلاص لقومه ، يثور لأحزانه ويتألم لآلامه وأشجانه . وقلب النجاني هو قلب الشاعر الصادق الذي يعد بمثابة أداة تصوير واعية تلتقط ما يتساقط عليها من ألوان الحوادث ومشاكل الوجود ، ومسرات الحياة وحسراتها . عبرت نفس النجاني الثائرة عما يجيش في قرارتها بهذه الأبيات الشاكية الصارخة في قصيدة مطلعها (ثورة) فقال .

من لهذا الأنام يحميه عنى ... قلمى صارمى وطرسى مجنى
هو فنى إذا اكتهلت وما زا ... ل على ريِّق الحداثة فنى
نهلت من دمى الحوادث واستر ... وى يراعى مما يدفّع دنى

إلى أن يقول : —

وطنى فى الصبا الندى والتمائي ... ل ونفسى ومن أحب وخدنى
هذه يا أبى تصاوير ما تبـ ... ـرح دنياى أو تزايل كونى
يصنع الغاب مزهرى، ويشيد الر ... مل عرشى ، ويبعث اللهو أمنى
تلك عرسى وإنها صنع نفسى ... بيدي صغتها وذاك ابنى
هى دنيا الصبىّ لا جنة الشيـ ... ـخ تفيض النعيم من كل لون

ثم يخاطب وطنه فيقول : —

قف بنا نملأ البـــلاد حماساً ... ونقوض من ركنها المرجحن
هى للنـــازحين مورد جود ... وهى للآهلين مبعث ضنّ
يستدر الأجانب الخير منها ... والثراء العريض فى غير من
أبطرتهم بلادنا فتعـــالى ... ابن أثينا «واستكبر» الأرمنى

ثم يختمها بهذا البيت الرائع الذى يدل على صدق الوطنية وقوة الشعور بكرامة القومية . —

يابلادى أخلصتك الخير واستصـ ... ـفيت ودى إليك من كل مين

ماذا ترى فى هذا الشعر الرصين والنفثة القوية المنبعثة من فؤاد مجروح وصدر معذب بالحرقة والأنين ؟ يتألم ويرسل صوته داويا كالرعد ، مجلجلا كالرعد ، نافذاً كالسهم فى قلوب المواطنين ونفوس الشباب العاملين .

صور الحب والجمال :

ليس فى الوجود إنسان دقيق المشاعر مرهف الإحساس لا يخفق قلبه للحب المثرى الطاهر ، ولا يفتتن بمنظر الجمال الساحر الجذاب ، ويعلق بالحسن فى جميع مظاهره المادية والمعنوية .

وما دامت النفس البشرية تشعر بهذه العاطفة الجامحة فإنها تجد فى الشعر خير معبر ناطق لما يلابسها من متباين الحس ومختلف الشعور ؛ وأصدق محدث ينطق بما توحى به بيئة كل شاعر وبحيطه الذى نشأ فيه ، وبما يؤثر عليه فى حياته من متنوع الحوادث ومتعدد الخطوب .

لقد خفق قلب الشابى بالحب حينما خاطب محبوبه بهذه الأبيات فى قصيدة عنوانها (أيتها الخالدة بين العواطف) .

أنت كالزهرة الجميلة فى الغا ... ب ولكن ما بين شوك ودود
فافهمى الناس إنما الناس خلق ... مفسد فى الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليـ ... ـل غريباً فى أهل هذا الوجود
ودعيهم يحيون فى ظلمة الاثـ ... ـم وعيشى فى طهرك المحمود
كالملاك البرىء ، كالوردة البيـ ... ـضاء ، كالموج فى الخضم البعيد
كأغانى الطيور ، كالشفق السا ... حر، كالكوكب البعيد السعيد

أودع الشابى فى الأبيات المتقدمة فنه وروحه وفكره . فهو حسن فى الصياغة والتخييل ، وبارع فى التشبيه والتمثيل ، ومن أكثر الشعراء وقوعاً على المعنى الطريف والفكرة العميقة .

فهل لنظيره التجانى شعر يشبهه فى روعة المعنى ودقة المبنى . إن التجانى وايم الحق وحيد عصره ونسيج دهره فى الإبداع فى شعر الحب والجمال . وإليك قصيدة تمثل أصدق تمثيل فنه الرائع، وفكره البارع ، وخياله العميق ، وتعبيره الدقيق . اسمعه يقول وهو المحب الواله المفتون :

جمال وقلوب

وعبدناك يا جمـــال وصغنا ... لك أنفاسنا هياماً وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجّر ... نا ينابيعها لعينيك قربى
وسمونا بكل ما فيك من ضو ... ء جميل حتى استفاض وأربى
وحبـــوناك ما يزيدك يا لحـ ... ـظ وضوحاً ، وأنت تفتأ ضبا

إلى أن قال :

من تُرى وزع الفتان يا حسـ ... ـنُ ومن ذا أوحى لنا أن نحبا
من ترى علّم القلوب هوى الحسـ ... ـن وقال اعبدى من السحر ربا
من ترى ألهم الجمال وقد أعطـ ... ـاه من جبرة الحوادث عضبا
أن بيت الهوى مفاتن فى جفـ ... ـن بليغ وأن يجود ويأبى
من ترى وثق الهوى بين مسحو ... رين اسما هما جمـــالا وقلبا
إنه صانع القـــلوب التى تذ ... هب فى قالب المحاسن صبا

تصوير الخلجات النفسية :

إذا عرفنا أن فى مكنة الشاعر العبقرى أن ينطق الشخوص عن نفثات صدورهم ، وسيحات قلوبهم ، وحسرات نفوسهم

فى تعبير قوى ونغم سحرى ، ومعنى الموى ، ينتقل به التأثير إلى نفوس السامعين فتتحرك عواطف القارئين بوحى الصورة المحسَّة فى الوصف الشعرى ؛ فان فى استطاعته من غير ما مشقة أو نصب أن يصور خلجات نفسه ، ونبضات قلبه ، وإحساس روحه ، صوراً شعرية ، هى فيض العاطفة المنفعلة ، ووحى الوجدان الصادق الذى عرف حقائق الوجود فى نفسه معرفة الواقع الملموس ، لا التخيل المحسوس .

للشابى قصائد كثيرة يصور فيها مطالب حسه ، وشجون نفسه ، تصويراً عذباً صادقاً تحس فيه حرارة الأيمان ، وصدق العواطف الباكية الناحبة . قال أبياتاً فى قصيدته (فى ظل وادى الموت) :

نحن نمشى وحولنا هاته الأ كـ ـوان تمشى ؛ لكن لأية غايه ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمـ ـس ، وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو آية الكون للمو ت ، ولكن ماذا ختام الروايه؟

إلى أن قال :

قد رتعنا مع الحياة طويلا وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالى حفاة فى شعاب الزمان حتى وعينا
وأكلنا التراب حتى مللنا وشربنا الدموع حتى روينا

وفى قصيدة أخرى عنوانها (الأبد الصغير) يقول :

يا قلب إنك كون مدهش عجب إن تسأل الناس عن آفاته وجموا
كأنك الأبد المجهول قد عجزت عنك النهى واكفهرت حولك الظلم
يا قلب كم من مسرات وأخيلة ولذة يتحامى ظلَّها الألم
غنت بفجرك صوتاً حالماً مرحا نشوان ثم توارت وانقضى النغم

ثم يعدد ما انتابه من آلام وأحزان عقبت ما كان فيه من مسرات ولذائذ فيقول :

كم قد رأى ليلك الأشباح هائمة مذعورة تتهاوى حولها الرجم
ورفرف الألم الدامى بأجنحة من اللهيب وأنّ الحزن والندم
تمضى الحياة بماضيها وحاضرها وتذهب الشمس والشطآن والقمم
وأنت أنت الخضم الرحب لا فرح يبقى على سطحك الطاغى ولا ألم

ثم يصور أحلامه التى نسجها فتلاشت ، وأكاليل نخاره وزينته التى أفنتها العواصف ، وأمانيه النضرة بمباهج الفردوس ومتع الجنان ، حيث اختفت وزالت . كل ذلك يعطيك فكرة عن نفسه التى برمت بالحياة لزوال ما فيها من نعيم أو جحيم ، لأنها تستقر بعد الحياة الفانية فى دنيا الخلود شابة نضرة مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم . كأنها لم تعرف السار البهيج والقاتم الحزين من صور الحدثان وظروف الزمان . إنه يقول هذا المعنى فى هاته الأبيات :

يا قلب كم ذا تمليت الحياة وكم راقصتها فرحا ما مسك السأم
وكم توشحت من ليل ومن شفق ومن صباح توشى ذيله السدم
وكم نسجت من الأحلام أردية قد مزقتها الليالى وهى تبتسم
وكم ضفرت أكاليلا موردة طارت بها زعزع تدوى وتحتدم
وكم رسمت رسوما لا تشابهها هذى العوالم والأحلام والنظم
كأنها ظلل الفردوس حافلة بالحور ثم تلاشت واختفى الحلم
تبلو الحياة فتبليها وتخلعها وتستجد حياة ما لها قدم
وأنت أنت شباب خالد نضر مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم

إن التجانى لا يقل عن الشابى مقدرة فى صوغ الانفعالات الوجدانية والحالات النفسية فى صورة تخيل لقارئها أنه يناجى نفسه ويحاور ضميره ، لا أنه يقرأ قطعة ممتازة لشاعر ممتاز .

نقدم لك منها هذه القصيدة العصماء فى روحها ومعناها ، وفيها تحمل من أسى وشجى ومن دموع وآلام . هى قطعة تفجرت من نفس ممزقة ونفثة من صدر مصدور عانى تنكر الصديق ، وجفاء الناس ، وقسوة المرض ، وتكالب المصاعب والمصائب . يقول هذا الشاعر وهو على فراش الموت مخاطبا صديقه « أنيس » :

أرأيت الصديق يأكله الدا ء ويشوى عظامه المحراق
ماردٌ هده السقام ولكن صبره الجم للضنى دفاق
جف من عوده الندى فتعرى وتنفت من حوله الأوراق
وذوى قلبه النضير وقد كا ن له فى زمانه تحفاق
وأنا اليوم لا حراك كأن قد شد فى مكمن القوى أوثاق
بت أستنشق الهواء اقتسارا نفس ضيق وصدر نطاق
وحنايا ممروقة وعيون مأثرات ورجفة ومحاق
لى رجاء فى رحمة الله لما وسعت فى الحياة ما لا يطاق

أبو القاسم محمد بدرى

مدرس بالمدرسة الثانوية بأم درمان (السودان)